الجزء الأول

من كتاب جامع التفاسير

الجامع لأحكام القرآن

تأليف:

الملا أنس بن برول

الآقدلكي قرية والآگري ولاية الپلكي

C

ا

الحمد لله حمداً موافياً لنعمه مكافاً لمزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأله وصحبه أجمعين.

(**أما بعد**) فهذا كتاب سميته جامع التفاسير تفسيراً للقرآن الكريم جامع بين المأثور والمعقول مستمد من أوثق كتب التفسير بأسلوب ميسر وتنظيم حديث مع العناية بالوجود البيانية واللغوية.

نقله أنس بن برول الآقدلكي قرية والآكري ولاية الپلكي عشيرة من كثير من التفاسير المتداولة بين العلماء الراسخون في العلم، وجمعه بأسلوب سهل العبارة واضح المعنى، فياض الأداء يفهمه الخاصة والعامة، بعيد عن المصطلحات الفنية، والمنا قشات الفلسفية:

أما بعد: فحدّ هذا الفن علم بأصول يعرف بها معاني كلام الله على حسب طاقة البشرية وأما معناه لغة فمأخوذ من الفسر وهو الكشف.

وموضعه آيات القرآن من حيث فهم معانيها، وواضعه الراسخون في العلم من عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلى هنا على التحقيق كما شهد الله بذلك، بقوله تعالى: (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) واستمداده من الكتاب والسنة وآثار الفصحاء من العرب العرباء واسمه علم التفسير،وحكمه الوجوب الكفائيى، ومسائله وقضاياه من حيث الأمر والنهي والموعظة إلى غير ذلك.

ونسبته أنه من أشرف العلوم الشرعية وأجلها، وفائد ته المعرفة بمعان كلام الله، على وجه الأكمل وغايته الفوز بسعادة الدارين فهو العلم الذي من خلاله يفهم كتاب الله عزّ وجلّ، الذي هو أشرف الكلام وأعظمه، ولذا فقد أهتم علماء المسلمين سلفاً وخلفاً بهذا العلم الشريف.

﴿سورة الفاتحة﴾

مكية وآياتها سبع آيات باتفاق

قال السيد قطب: تبدأ السورة: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ومع الخلاف حول البسملة، أهي آية من كل سورة أم هي آية من القرآن تفتح بها عند القرائة كل سورة، فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة، وبها تحتسب آياتها سبعاً، وهناك قول بأن المقصود بقوله تعالى: (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات ((من المثاني)) لأنها يثنى بها وتكرر في الصلاة، والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم، في أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله تعالى: (إقرأ باسم ربك)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ [٢] ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [٣] ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٤] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٥] ﴿اهْدِنَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [٦] ﴿صِرَٰطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ﴾ [٧]

قوله: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾** أي إن كل ثناء جميل فهو لله تعالى إذ هو مصدر جميع الكائنات، وهو الذي يوسوس العالمين، ويربيهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلهمهم ما فيه خيرهم وصلاحهم، فله الحمد على ما أسدى، والشكر على ما أولى. **﴿الرَّحْمَٰنِ﴾** أي المسيل للنعم المحسن على عباده بلا حصر ولا نهاية، وهذا اللفظ خاص بالله تعالى ولم يسمع من العرب إطلاقه على غيره تعالى **﴿الرَّحِيمِ﴾** أي الذي يرحم عباده المؤمنين يوم الدين (وكان بالمؤمنين رحيماً) فالرحمن يدل على أنه سبحانه متصف بالرحمة بذاته المقدسة، والرحيم صفة متعلقة بالعباد.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي لا نعبد أحداً سواك، ونخصك وحدك بطلب العون، فلا نعبد أحداً سواك، لك وحدك ربنا نذل ونخضع ونستكين ونخشع، وإياك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، لأن العبادة خضوع ينشأ عن إستشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن له سلطاناً لا يدريك العقل حقيقته ؛ لأنه أعلى من أن يحيط به فكر أو يرقى إليه إدراك.

﴿اهْدِنَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريق الحق، ودينك المستقيم، وثبتنا على الإسلام الذي الموصل إلى دار السلام، الذي بعثت به أنبيائك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين، الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، والصراط هو الطريق، والمستقيم ضد المعوجّ، وهو ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب على سالكها أن ينتهى إليها.

﴿صِرَٰطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي دلنا وأرشدنا إلى صراط من تقدمنا، لأن د ين الله واحد في جميع الأزمان: فهو إيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وتخَلُق بفاضل الأخلاق وعمل الخير وترك الشر، وهذا طريق عبادك المهتدين، الذين أنعمت عليهم، من النبيين، والصدقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ﴾ أي لا تجعلنا يا ألله من زمرة أعدائك الخارجين عن الصراط المستقيم، السالكين غير منهج القويم، من اليهود المغضوب عليهم، أو النصارى الضالين، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية

(آمين) اسم بمعنى استجب، ليس من القرآن إذ لم يثبت في المصاحف، ولا يقوله الإمام في الصلاة، لأنه الداعى كما قال الحسن البصرى، والمشهور عن أبي حنيفة أن الإمام يقوله ويخفيه لرواية أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام، وعند الشافعية يجهر الإمام بكلمة آمين، كما رواه وائل بن حجر عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: كان إذا قرأ (ولا الضالين) قال: ((آمين)) ورفع صوته،

انتهى تفسير سورة الفاتحة بعون الملك القادر.

***

﴿سورة البقرة﴾

خمسة وعشرون الفاً وخمس مئة حرف، وستة آلاف ومئة وعشرون كلمة، ومئتان وستة وثمانون أية في عدد الكفوي وعدد علي بن أبي طالب.

سورة البقرة مدنية، نزلت في مدد شتّى، وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) البقرة [٢٨١] فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النَّحر في حجة الوداع بمنى؛ وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن.

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم، ويقال لها فسطاط القرآن ؛ أي لب القرآن وقلبه، قاله: خالد بن معدان الحمصي الكلاعي، تابعي ثقة عابد توفي سنة ١٠٣] وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها، وتعلمها عمر رضي الله عنه، بفقهها وما تحتوى عليه في اثنتى عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثماني سنين.

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر، وبعث رسول الله عليه الصلاة والسلام بعثاً وهم ذوو عدد، وقَدم عليهم أحدثهم سنا لحفظه سورة البقرة، وقال له: ((اذهب فأنت أمرهم)) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وصححه.

وروى مسلم عن ابي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام، يقول: ((اقرؤا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطعها البطلة)) قال معاوية بن سلام: وهو أحد رواة الحديث، بلغني أن البطلة: السحرة، وروي أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)

وفي كتاب الاستعاب لابن عبد البر: وكان لبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده ؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال: إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال: ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علّمني الله البقرة وآل عمران فأعجب عمر قولُه؛ وكان عطائه ألفين فزاده خمس مئة، وقد قال كثير من أهل الإخبار: إن لبيد لم يقل شعراً منذ أسلم، وقال بعضهم لم يقل في الإسلام إلاّ قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي * حتى لبست من الإسلام سربالاً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ﴾ (١) الحروف المقطعة للإشارة إلى أعجاز القرآن، فهذا الكتاب المعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وقد تحدّى الخالق به البشر، لأن ألفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المُقطعاتُ المرقومة في فواتح سور الكريمة أسماء لها، لاندراجها تحت حد الاسم، ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم، وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية، وما وقع في عبارات المتقد مين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة، وأما ما روي عن ابن مسعود رضى الله عنه من أنه عليه الصلاة والسلام، قال: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (ألم) حرف بل الف حرف ولام حرف وميم حرف)

وقال القرطبي: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور؛ فقال عامر الشعبي وسفيان الثورى وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سرٌ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب أن يتكلّم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت.

وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود انهم قالوا: الحرف المقطعة من المكتوم الذي لا يُفَسّر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطوعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله جلّ وعزّ بها.

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٢] قال الصاوي: (ذلك) اسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف حرف خطاب والكتاب نعت لاسم الإشارة، أو عطف بيان وجملة لا ريب فيه خبرٌ للمبتدأ.

قال فخر الرازي: فإن قيل: و (ذلك) اسم مبهم يشاربه إلى البعيد والمشار إليه هنا الكتاب وهو حاضر.

الجواب: لا نسلم أن المشار إليه حاضر لأن الله تعالى أنزل الكتاب بعضه بعد بعض، فنزل قبل سورة البقرة سورة كثيرة، وهي كل ما نزل بمكة مما فيه الدلالة على التوحيد وفساد الشرك وإثبات النبوة وإثبات المعاد، فقوله (ذلك) اشارة إلى تلك السور التي نزلت قبل هذه السورة.

وخلاصة معنى الآية: أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب ولا شك في أنه من عند الله، لمن تفكر وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيدٌ، وذلك الكتاب هاد للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، قال ابن عباس: المتقون هم الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعة الله، وقال الحسن البصرى: اتقوا ما حُرّم عليهم، وأدّوا ما فُرض عليهم. ثم بين الله تعالى: حال هؤلاء المتقين، فقال:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٣]

أي الذين يصدقون بما غاب عنهم ولم تبلغه حواسهم، من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القران أو النبي عليه الصلاة والسلام، والذين يؤدون صلاتهم بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها وقال ابن عباس: إقامة الصلاة: إتمام ركوعها وسجودها، والتلاوة والخشوع فيها، والذين مما أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصد قون في وجوه البر والإحسان.

قال القرطبي: قوله: (رزقناهم) أي أعطيناهم الرزق، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق، لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [٤]

أي يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم، ويصدقون بالبعث، والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، وإنما سميت الآخرة ؛ لأنها بعد دنيا.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥]

أي المتّصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو مستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات، وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية، في جنات النعيم.

ثم ذكر الله تعالى آيتين في صفات الكفار الفجار، فقال جلّ ذكره:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٦]

أي إن الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، سواء، أحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه، أم لم تحذرهم من عذاب الله، إنهم لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، حول تكذيب قومه له.

قال القرطبي: اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية، وفيمن نزلت، فقيل: هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليهم كلمة العذاب؛ وسبق في علم الله أنه يموت على كفره أراد الله تعالى أن يُعْلم أن في الناس من هذه حاله دون أن يعيّن أحداً.

قال ابن عباس والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود، منهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظائرهما الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، توبيخاً لهم في جحودهم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وتكذيبهم به، مع علمهم به ومعرفتهم بأنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة

وقال الربيع بن انس: نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب والأول أصح، فإن من عيّن أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر، وذلك داخل في ضمن الآية. ثم بين الله تعالى العلة في سبب عدم الإيمان، فقال:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٧]

أي طبع الله على قلوبهم فلا يدخل فيها نور الإيمان، وذلك أن القلوب إذا غلبت عليها الذنوب، طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها طريق ومدخل،

ولا للكفر عنها مهرب ومخرج، وعلى أسماعهم وأبصارهم غطاء وحجاب، فلا يبصرون الهدى، ولا يسمعونه، ولا يفقهونه، ولا يعقلونه، لأن أسماعهم وأبصارهم وعلمهم وعقلهم كأنها مغطات بحجب كثيفة، ولذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، ولهم في الآخرة عذاب شد يد دائم لا ينقطع، والآية ضرب الله مثلاً لحال قلوب أولئك القوم، كأنهم قطيع من البهائم، لا تفقهون ولا تعقلون، لأنهم عطلوا حواسهم هذه.

وقد وصف الله حال الذين كفروا في آيتين، وحال المنافقين في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم، وفضحهم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكّم بفعلهم، ودعاهم صماً بكماً عمياً وضرب لهم شنيع الأمثال، للتنبه على أنهم أقبح من الكفار، وعذابهم أشد، فقال جلّ ذ كره:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٨]

أي ومن الناس طائفة يقولون بألسنتهم: صدقنا بالله، وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات، وصدقنا بالبعث والنشور، وما هم على الحقية بمصدقين ولا مؤمنين، وماهم بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين يشعرون بعظيم سلطان الله، ويعلمون أنهم مطلع على سرهم ونجواهم، لأنهم يكتفون ببعض ظواهر العبادات، ظناً منهم أن ذلك يرضى ربهم، ثم هُمْ بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب وغش، وخيانة وطمع إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم ونقله الروات أجمعون.

قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المتحير المتردد بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنهم ستروا كفرهم، وخلطوا به خداعاً واستهزاءً.

ولذلك أطال القرآن في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم، ودون عليهم الطغيان والضلال وضرب لهم الأمثال بقوله:

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩]

أي يفعلون فعل المخادع، بإظهارهم الإيمان وإخفائهم الكفر، بظنهم أنهم يخدعون الله وعباده المؤمنين، وفي الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم ولا يحسون بذلك، لانهم سفهاء ضعيف العقل فقدوا الشعور والإحساس إذ ضرر عملهم لاحق بهم، فهم يغرّون أنفسهم بالأكاذيب ويلقونها في مهاوي الهلاك والردى، ولا يحسّون بذلك، ولا يفطنون إليه، لتمادى غفلتهم، وتكامل حماقتهم.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [١٠]

أي في قلوبهم مرض الضلال والنفاق، لوقوعهم في شك وارتياب من أمر الإسلام، وزادهم الله شكاً ونفاقاً، بأن لهم عذاب مؤلم موجع، بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات القرآن المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخلل في أفاعيله، ويؤدّى إلى الموت، استعير ههنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة، وعداوة النبي عليه الصلاة والسلام، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدى إلى الهلاك الروحاني.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [١١]

أي إذا قال لهم الناصحون: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصدِّ عن سبيل الله قالوا: لسنا من أهل الفساد، ولا شأن لنا إلا الإصلاح، فنحن بعيدون عن شوائب الإفساد، باتباعنا رؤسائنا الذين استنبطوا تعاليمهم من الأنبياء،

فكيف نَدَعُ ما تلقيناه منهم، ونعتنق ديناً جديداً لا عهد لنا به من قبل، قال ابن مسعود: الفساد في الأرض الكفر، والعمل بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض. قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [١٢]

أي ألا فانتبهوا أيها المؤمنون لخطرهم، لأنهم في تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين حقاً، ولكن لا يفقهون ولا يحسون، وفيه وجهان: أحدهما: أنهم كانوا يعملون الفساد سراً ويظهرون الصلاح، وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي عليه الصلاة والسلام، والوجه الآخر: أن يكون فسادهم عندهم صلاحاً وهم لا يشعرون أن ذلك فساد، لأنهم قد عصوا الله ورسوله في تركهم تبين الحق واتباعه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣]

أي وإذا قيل للمنافقين: كعبد الله بن سلام وأمثاله: آمنوا بمحمد وشرعه، إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن به أصحابه عن يقين وإخلاص (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) أرادوا بالسفهاء أتباع النبي عليه الصلاة والسلام من المهاجرين والأنصار، أما سفهة المهاجرين عندهم فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم، وهجروا أوطانهم وتركوا ديارهم ليتبعوا النبي عليه الصلاة والسلام ويسيروا على هديه، وسفهة الأنصار عندهم، لأنهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم.

قال الله تعالى رداً عليهم (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) ألا إنهم هم السفهاء حقاً دون من عرَّضوا بهم ونسبوهم إلى السفه.

ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى، والبعد عن الهدى إذ هم لهم سلف صالح كموسى عليه السلام للنصارى، وعيسى عليه السلام لليهود، تركوا الاقتداء بهم واكتفوا بانتظار شفاعتهم، وإن لم يجروا على هديهم وسنتهم، بخلاف المهاجرين والأنصار الذين لا سلف لهم إلا عابدوا أصنام، وقد هداهم الله وصارت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولا يستبعد ممن انهمك في السفاهة وتمادى في الغواية، وممن زين له سوء عمله فرآه حسناً وظن الضلال هدى، أن يسمى الهدى سفهاً وضلالا، أكد الله ونبّه وحصر السفاهة فيهم، ثم قال الله تعالى: منبهاً إلى مصا نعتهم ونفاقهم:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [١٤]

أي وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا، وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافات غروراً منهم للمؤمنين، وإذا أنفروا بأمثالهم من دعات الفتنة والإفساد قالوا لهم: إنا على عقيدتكم، وموافقكم على دينكم وإنما نظهر لهم الإيمان استهزاءً بهم، لنشاركهم في الغنائم ونحفظ أموالنا وأولادنا ونسائنا من أيديهم ونطلع على أسرارهم.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١٥]

أي ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، وسمي هذا الجزاء استهزاءً للمشاكلة في اللفظ، كما سمي جزاء السيئة سيئة، ويزيدهم في عتوّهم وكفرهم، ويجعلهم حائرين متردد ين في الضلال عقوبة لهم على استهزائهم، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشداً، ولا يهتدون سبيلاً.

﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [١٦]

أي هؤلاء قد أعرضوا عن الهدى ودخول الطريق المستقيم، ومالوا إلى الضلالة واشتروه، ولكن لم تكن تجارتهم رابحة، إذ هم أضاعوا رأس المال، لأنهم اشتروا الخصيص الدنيء وهو الكفر، بالغالي النفيس وهو الإيمان، فصاروا خاسرين في غاية الخسران، كمن دفع الذهب الخالص، ثمناً لروث الأنعام، فما أفلح في تجارته، ولا ربح فيها، ومن كانت هذه حالهم في التجارة، فلا علم لهم بطريق التجارة، فإن التاجر إن فاته الربح في صفقة فربما تداركه في أخرى مادام راس المال موجوداً، وفي هذه التجارة ما بقي رأس المال، فلا سبيل إلى الربح بحال.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [١٧]

قال ابن كثير: إن الله جلّ ذ كره: شبه المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضائت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لا يبصر ولو كان ضياءً فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك.

فكذالك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [١٨]

أي هم كالصمّ لا يسمعون من يدعوهم إلى الخير، وكالبكم لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمى لا يبصرون الهدى، قال فخر الرازي: وقوله: (لا يرجعون) فيه وجوه،

أحدها: أنهم لا يرجعون عما تقدم ذكره وهو التمسك بالنفاق الذي لأجل تمسكهم به وصف هم الله تعالى بهذه الصفات فصار ذلك دلالة على أنهم يستمرون على نفاقهم أبداً.

وثانيها: أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، وعن الضلالة بعد أن اشتروها.

وثالثها: أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا خامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقد مون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ﴾ [١٩]

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، ومثلهم كمثل الذ ين أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مع البرق والصواعق، وهم من دهشتهم يضعون أصابعهم في آذانهم، لدفع ضرر الصواعق، يظنون أن ذلك ينجيهم من الموت قوله: (وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ) جملة اعتراضية، أي والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته وقدرته لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٠]

أي يقرب البرق يختلس أبصارهم، ويأخذها بسرعة من شدة الضوء المفاجىء (كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ) أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه (وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) أي وإذا خفي البرق واستتر، وقفوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة (وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ) أي ولو شاء الله أن يذهب سمعهم وأبصارهم بصوت الرعد ونور البرق لفعل، لكنه لم يشأ لحكمة ومصالح هو بها عليم.

(إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) قال ابن عباس: أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير، وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه محيط بهم، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قد ير، ومعنى قدير: قادر، كما أن معنى عليم عالم.

وصف الله تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف، كلها قبيحة شنيعة، تدل على ثبوتهم في النفاق والضلال، وهي (الكذب، والخداع، والمكر، والسفه، والإستهزاء، والإفساد، والجهل، والضلال، والتذبذب، والسخرة بالمؤمنين) وكل واحدة منها تكفي للخزى والإهانة، فكيف بها مجتمعة.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢١]

بعد ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق: مؤمنة به محا فظةٍ على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق، ونعتِ كل فرقة.

منها بما لها من النعوت والأحوال وبين مالهم من المصير والمآل- أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء وتوجهاً لقلوبهم نحو التلقي، وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب، فأمرهم كافة بعبادته، ونهاهم عن الإشراك به.

وخلاصة معنى الآية: أي يا معشر بني آدم اذ كروا نعم الله الجليلة عليكم، واعبد الله ربكم، الذي رباكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، اعبدوه بتوحيده، وشكره، وطاعته، الذي أوجد كم بقدرته من العدم، وخلق من قبلكم من الأمم (لعلكم تتقون) أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح.

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٢]

أي جعل بعضها بارزاً من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحاً حقيقياً، فإن كروية شكلها مع عظم جرمها مصحح لافتراشها، وقرأ بساطاً ومهاداً

(والسماء بناءً) عطف على المفعولين السابقين، وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم أليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر، أي جعلها قبة مضروبة عليكم، والسماء اسم جنس يطلق على الواحد والمتعد د والبناء في الأصل مصدر سمي به المبني بيتاً كان أو قبة أو خباءً.

(وأنزل من السماء ماءً) عطف على جعل أي أنزل من جهتها، أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض، كما روى ذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام

أنه سئل المطر من السماء أم السحاب ؟ قال من السماء، إنما السحاب علم ينزل عليه الماء من السماء (فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) أي فأخرج بذلك المطر، أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم.

ومن للتبعيض لوقعها بين منكرين أعنى ماءً ورزقاً كأنه قيل: وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء، ولا أخرج من الأرض كل الثمرات، ولا جعل كل المرزوق ثماراً، أو لتبيين، ورزقاً مفعول بمعنى المرزوق، ومن الثمرات بيان له أو حال منه.

(فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أي إذا أُمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكاً، وأنتم تعلمون أن الله وحده هو الخالق الرازق، وأن هؤلاء الشركاء لا يخلقون ولا يرزقون.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [٢٣]

أي إذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد (فأتوا بسورة من مثله) أي فجيئوا بسورة واحدة من مثل سورة القرآن، في حسن النظم والفصاحة والبيان.

(وادعوا شهدائكم من دون الله) أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذ ين يساعدونكم على معارضة القرآن، غير الله سبحانه، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى قال البيضاوى: المعنى: ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته